النخب في العالم العربي: الواقع والأدوار

Elites in the Arab World: Reality and Roles

خليدة كعسيس خلاصي

جامعة بومرداس، الجزائر، k.kassis@univ-boumerdes.dz

تاريخ الإرسال: 2021/01/16 **تاريخ القبول:** 2021/03/20 **تاريخ النشر:** 2021/07/10

ملخص:

تهدف هذه الدراسة، إلى تقديم قراءة نقدية تحليلية لواقع ودور النخب في العالم العربي، من خلال الانطلاق من الإشكالية التالية: ما هو واقع النخب العربية و خصائصها؟ و فيما تتمثل إشكالياتها الفكرية و أدوارها منذ بداية الحراك العربي؟ و لمعالجة الموضوع محل الدراسة، تم الاعتماد على المنهج التاريخي لفهم الخلفيات التاريخية لتكوين الفكر العربي وتشكل النخب في العالم العربي، بالإضافة إلى المنهج الوصفي التحليلي لتوصيف وتحليل واقع ودور النخب العربية. وقد خلصت الدراسة إلى أن النجاح في بناء مشروع نهضوي في العالم العربي مرهون بمدى اضطلاع النخب المثقفة بأدوار ريادية فاعلة، كما توصلت الدراسة إلى أن المنطقة العربية تعيش أزمة خطيرة على مستوى النخب، نتيجة انعزالها عن المجتمع ومشكلاته، مما جعل الجماهير، تفقد ثقتها في النخب المثقفة، وخصوصاً في دورها الرائد في مطالب الحرية والديمقراطية والتعددية.

الكلمات المفتاحية: *النخب؛ العالم العربي؛ المشروع النهضوي؛ التنوير؛ الفكر العربي.*

Abstract:

This study aims to provide a critical and analytical reading of the reality and role of elites in the Arab world, by starting from the following problem: What is the reality of Arab elites and their characteristics? And What are its intellectual problems and roles since the beginning of the Arab movement? In order to deal with the subject under study, the historical method, and descriptive and analytical method. The study concluded that the success in setting up a project for the renaissance in the Arab world requires that the elites play effective roles, but the Arab region is experiencing a serious crisis of the elites, as a result of their isolation from society and its problems, which made the masses lose their confidence in the elites, especially in their pioneering role in the field of freedom, democracy and pluralism.

Keywords: *Elites; Arab world; Renaissance project; Enlightenment; Arab thought.*

* **المؤلف المرسل: خليدة كعسيس خلاصي، k.kassis@univ-boumerdes.dz**

مقدمة:

تكتسي النخب مكانة هامة في أي مجتمع، باعتبارها تسهم بشكل كبير في فهم وتفسير الظواهر داخل الدولة وفي المجتمع، ما يفترض أنها تلعب أدوارا طلائعية داخل النسق السياسي و النسيج الاجتماعي، وبالتالي دورها كبير وتأثيرها أكبر في توجيه صناعة القرار بما يخدم النهوض الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. فالنخبة هي بمثابة الحامل الاجتماعي الذي يُعوَّل عليه في قيادة الفعل النهضوي في أي مجتمع، أي الطبقة التي تستطيع أن تصل إلى مرحلة وعي الذات لتعمل من خلال وعيها على قيادة المجتمع.

لقد ارتبط تشكّل و تطوّر النخب في العالم العربي بحقبات تاريخية شكّلت جوهرها و صقلت تصوراتها، و كان ذلك مرتبطا بالأزمة الحضارية التي عاشتها الدولة العربية الحديثة منذ نشأتها في بداية القرن العشرين. بمعنى أن نمو النخب و تطورها كان مرتبطا بالتحولات السياسية في المنطقة العربية، حيث تنوع الخطاب النهضوي و تنوعت مشاريع الإصلاح التي كانت بمثابة انعكاس لمتغيرات سياسية في حقبة تاريخية معينة. و إذا أمكن الحديث عن النخبة كنواة لشريحة يمكن تسميتها" بالانتلجنسيا" العربية، فإنه يمكن القول أنها ظلت منقسمة على نفسها في تصوراتها اتجاه الحلول النهضوية المطروحة.

ولعل الظروف التي مرّت بها الدول العربية، و الأزمات التي عرفتها منذ بداية الحراك العربي، أو ما اصطلح عليه إعلاميا "بالربيع العربي"، هي بمثابة لحظة كاشفة لهذه النخب بمضامينها، كما تعد اختبارا لمدى اصطفاف هذه النخب وراء قناعاتها الفكرية و السياسية. على ضوء ما سبق، تحاول هذه الدراسة معالجة **الإشكالية التالية: ما هو واقع النخب العربية وخصائصها؟ و ماذا عن إشكالياتها الفكرية و دورها منذ بداية الحراك العربي؟.**

للإجابة على هذه الإشكالية، تحاول هذه الدراسة اختبار الفرضية التالية:

- **بناء المشروع النهضوي في العالم العربي مرهون بمدى اضطلاع النخب المثقفة بأدوار ريادية فاعلة.**

قصد معالجة الموضوع محل الدراسة، تم الاعتماد على **المنهج التاريخي** لفهم الخلفيات التاريخية لتكوين الفكر العربي وتشكل النخب في العالم العربي، بالإضافة إلى **المنهج الوصفي التحليلي**، الذي يساعد ليس فقط على توصيف واقع النخب العربية، و إنما أيضا يساعد على تحليل دور النخب المثقفة في المنطقة العربية.

سعيا للإحاطة الشاملة بالموضوع، تم تقسيم هذه الدراسة إلى العناصر التالية:

1. مفهوم النخب المثقفة: واقعها و خصائصها.
2. الإشكاليات الفكرية و السياسية للنخب العربية.
3. الإرهاصات الأولى لتكوين الفكر العربي و تشكّل النخب.
4. دور النحب المثقفة في الوضع العربي منذ بداية الحراك العربي.

1. مفهوم النخب المثقفة: و اقعها و خصائصها

يقصد بالنخبة المثقفة (الأنتليجنسيا)، فئة من الأشخاص المتعلمين المنخرطين في الأعمال الذهنية المعقدة التي لها دور نقدي وتوجيهي وقيادي في تشكيل ثقافة وسياسة مجتمعهم، تضم الأنتليجنسيا فنانين

ومعلمين وأكاديميين وكتاب ورجال الحرف. يُعرف أفراد الأنتليجنسيا بالمثقفين وهم "فئة" أو "طبقة" تقوم بدور الوسيط في عملية التكوين والتفكير، و تنوب عن الباقين في ذلك، و من أولوياتها في أي مجتمع صناعة الأفكار، و من مهامها تنوير المجتمع وتمهيد الطريق له نحو التقدم والتنمية الشاملة (Ory, Sirinelli 2002, p. 10). إذن الطبقة المثقفة هي رافعة لقضايا المجتمع و صانعة لأفكاره بغرض التأسيس لمستقبل أفضل.

بالنسبة لمسار الفكر العربي خلال القرن العشرين، فقد تأرجح بين المبادئ القومية الاشتراكية والليبرالية و لاحقا ما اصطلح عليه بالصحوة الإسلامية، الشيء الذي جعل خصوصية النخب العربية أنها، إما استطالة للثقافة الغربية حيث تتم عملية التحديث بالاندماج مع الغرب و التماهي معه، أو امتدادا للفكر الذي يدعو إلى إحياء الموروث الثقافي العربي الإسلامي، و العودة إلى الأصالة و فك العقدة التاريخية بين الأنا و الآخر.

أما عن أهم خصائص هذه النخب، فهي تتسم في كونها مجموعة قليلة من الأفراد، صانعي القرارات الرئيسية في المجتمع أي أنها تضم ذوى التأثير السياسي، فهم الذين يؤثرون على عملية التخصيص السلطوي للقيم. هذه المجموعة تمتلك القوة سواء تم تحديد هذه القوة على أنها مشاركة في صنع القرار، أو تعنى قدرة الشخص على التأثير في سلوك الآخرين، و القدرة توزيع القيم في الاتجاه المستهدف.أيضا قدرتها التنظيمية وخصائصها السلوكية، و تكون تلك الهيمنة ناتجة من قيم دينية و اجتماعية ترتبط بتقاليد المجتمع (رشاد 1978، ص. 9).

على مدار التاريخ الحديث و المعاصر كانت حركات التغيير تقودها النخب، سواء فكرية ثقافية أو اجتماعية، و لم يحدث أن حصل تغيير جذري أو نهضة دون أن تكون الريادة للنخب، التي تعمل بمثابة قاطرة الشعوب و الجماهير . و لعل النموذج الأوروبي ابرز مثال على ذلك، فحركة التنوير ثم الانطلاقة الاقتصادية كانت نتيجة حركة علمية و ثقافية و اجتماعية واسعة و متراكمة. و حتى اليوم بعض النماذج الأسيوية كماليزيا، تعود انطلاقتها التنموية إلى الزخم الفكري النخبوي الذي استطاع أن يرسم خريطة النهوض لهذا المجتمع انطلاقا من خصوصياته و إمكانياته. فهل استطاعت النخب العربية منذ عقود تقديم البديل الحضاري لشعوبها؟.

2. الإشكاليات الفكرية و السياسية للنخب العربية

قال جون لوك: " إن الأفكار و الصور المرتسمة على عقول الناس هي القوى غير المنظورة التي تحكمهم و تسيطر عليهم باستمرار "(ستورمبرج 1994، ص. 666). و على اعتبار أن الأفكار هي التي تصنع للحضارة قالبها أو على الأقل هي التي تمكننا من فهمها ووصفها (ستورمبرج، ص. 665)، فلا شك بأن تناقضات الفكر المتمركزة حول نفسه، واختزاله للثقافات الأخرى، يتصل أساساً بواقع الثقافة العربية الحاضرة (ثقافة المطابقة) التي تعكس الحضور المهيمن للثقافة الغربية في معطيات الثقافة العربية.

ففي إطار جدلية الأصالة و المعاصرة، فكرة الذات و الآخر، الماضي و الحاضر، كان لهذه الثنائيات الجدلية أثرا كبير على الوعي و الفكر العربي الذي انقسم بسببه إلى قسمين متضادين، حيث أصبحت تلك المفاهيم أو المرجعيات ثابتة و نهائية، توجه عمل الفكر و تحدد مجالاته و تُقوِّم نتائجه، و كل منهما يتعصب لمنهجه من خلال نسج براهين تؤكد صوابه و تفنّد و تسفّه الطرح المضاد.

و لقد انقسم التفكير العربي في هذا الإطار إلى تيارين:

الأول: يدعو إلى الذوبان في المرجعية الغربية، باعتبارها النموذج الأصلح و الأصح الذي ينبغي أن نصبح جزءا منه. و هذا تيار كان يراهن دوما على أن عملية التحديث و النمو لن تتحقق إلا من خلال التجربة الغربية، بالتالي الاندماج مع الغرب و التماهي معه. بمعنى أن الثقافة الغربية هي الجوهر الوحيد في العالم.

أما الثاني: يدعو إلى إيجاد هوية ثقافية تنهل عناصرها من الماضي، أي ينبغي العودة إلى الأصالة واستغلال الذخيرة المعرفية من خلال إحياء الموروث و فك العقدة التاريخية مع الآخر، و منه قلب الموازين وتبادل الأدوار من خلال القضاء على الأسطورة الثقافية الغربية. بمعنى أن الرصيد الحضاري العربي الإسلامي هو الجوهر الوحيد و هو ثقافة الأصول (إبراهيم 2003، ص. 7).

إن النقد هو الممارسة التي يمكن اعتبارها دعامة الاختلاف الشرعية. و نقد المركزية الغربية هي ممارسة معرفية واعية. هو نقد لا يتقصّد إيجاد قطيعة بين الاثنين، إنما هو ترتيب العلاقة بينهما وفق أسس حوارية تفاعلية و تواصلية بهدف إيجاد معرفة جديدة تقوم على مبدأ الاختلاف الرمزي عن الذات المتمركزة وخرافاتها و الآخر المتمركز و مصادراته (إبراهيم، ص. 10).

لقد أصبحت أوروبا و الغرب مفهومان متلازمان، تمخضا عن حقبة تاريخية طويلة و متقلبة اصطلح عليها" بالعصر الوسيط". حقبة طوّرت جملة من العناصر الاجتماعية و السياسية و الدينية و الثقافية، و التي اندمجت لتشكّل هوية أوروبا، و بانتهائها ظهر مفهوم الغرب بأبعاده الدلالية و سرعان ما ارتبط بأوروبا الغربية (إبراهيم، ص. 11).

هذا الرصيد الحضاري و الديني، و كذا الخصائص العرقية هو ما شكّل أسس هوية أوروبا و ركائزها، و من هنا أصبحت **المركزية الغربية** ذات طبيعة إشكالية خاصة بعد اقتران ولادة العصر الحديث مع الممارسة الغربية في ميادين المعرفة و الاكتشافات و قيام الدولة الحديثة. و منه التصقت صفة الحداثة بالمضمون الإيديولوجي الذي أشاعته الثقافة الغربية بما يوافق منظورها و تصوراتها للعالم و الإنسان (إبراهيم، ص. 15). و لعل الممارسة الفعلية و التأثير الكبير على مختلف الشعوب و المجتمعات ساهمت فيه الحركة الاستعمارية.

على هذا الأساس، قامت الثقافة الغربية كما يقول **سمير أمين** على افتراض وجود مسالك تطور خاصة لمختلف الشعوب، و التي لا يمكن إرجاعها إلى فعل قوانين عامة تنطبق على الجميع، فهي لا تهتم بكشف القوانين التي تحكم تطوّر المجتمعات، بل تقترح على الجميع محاكاة النمط الغربي بوصفه الأسلوب الفعّال و الوحيد لمواجهة تحديات العصر.

من هنا تأتي ازدواجية الطرح التي تعتمده النخب في البلاد العربية، على اعتبار أن فصيلا منها هو نتاج لمنظومة فكرية و ثقافية غربية، و الثاني هو الفصيل الذي يرفض من الأساس الأخذ و لو بثمار الحضارة المادية الغربية، و لو في مجال المعرفة فقط.

وعليه، لم تستطع النخب في البلاد العربية الخروج من جدلية الثنائيات حول الأنا و الأخر، بنموذج خاص بها و نابع من خصوصيتها الثقافية و الاجتماعية، مع طبعا الاستفادة من التفوّق و التقدم الغربي في العلوم الوضعية.

هذا رغم الطرح العنصري الذي يتبناه **أوغست كونت** عندما يقول بأن "التفوق المحتوم للتاريخ، في الفلسفة و السياسة الذي يميّز عصره، ينبغي تطبيقه اتجاه الشعوب المتخلفة التي تقف في مؤخرة الحركة

العامة، باعتبارها حضارات ثانوية، و إلى أن تصبح متقدمة يجب أن تتألف القاطرة من طليعة بشرية أغلبيتها من العرق الأبيض (الأمم الكبرى الخمس في أوروبا) مهمتها الإعداد الحصري و المنهجي للفلاسفة (شوفالييه 2002، ص. 132).

و رغم المزاعم التي تعتبر العلوم الوضعية هي انسلاخ عن الذات و فقدان للهوية مستندة في ذلك إلى طروحات غير منطقية. ففي غياب التفكير النقدي نكون رهائن للمؤشرات المحيطة بنا، فلا يسعنا إلا تكرار تلك الاستجابات التي تعلمناها من قبل.

3. الإرهاصات الأولى لتكوين الفكر العربي و تشكّل النخب

تُجمع معظم الدراسات العربية و حتى الغربية على جعل النخب العربية كتلة متجانسة من حيث التكوين و المنشأ، و من حيث النسق الفكري و الثقافي. فإذا كانت المرجعية واحدة من حيث وحدة المقومات الثقافية و الدينية و وحدة التاريخ و المصير ، يبقى أن الإرث التاريخي و المسار السياسي مختلف، وهو ما أفرز تجربة خاصة لكل دولة عربية. رغم ذلك تبقى هناك فوارق و اختلافات جزئية بين نخب الدول العربية، ولكنها ليست جوهرية. على العموم يبقى القاسم المشترك بين النخب العربية تركيز جهودها مع بداية الاستقلال على كل ما هو سياسي و إيديولوجي، و صراع على السلطة و إهمالها للمشروع الاجتماعي و الثقافي (الأنصاري 2001، ص. 114).

ورغم ذلك توصف النخب عموما و العربية على الخصوص بأنها نخب عضوية، أي أنها تتماهى مع المشروع الرسمي الذي تتبناه الأنظمة السياسية، أو بمعنى آخر الدور الوظيفي لها لتمرير الخطاب الرسمي، و في هذا الإطار يرى **رايت ميلز** أن المثقفين و المفكرين المستقلين قد يواجهون خيار الانضمام إلى صفوف المؤسسات أو الحكومات، فقد لا تبقى للمفكر خيار ثالث، إما العزلة أو الانحياز، أو محاربة التنميط الذي تفرضه السلطة (سعيد 2006، ص. 56).

طبعا لا يمكن تعميم التعريف الاصطلاحي على اعتباره جامدا و صالحا لكل زمان و مكان، فالواقع أن تشكّل النخب و دورها كان انعكاسا لظروف تاريخية و معطيات ثقافية و اجتماعية خاصة، فمتطلبات كل مرحلة كانت تفرز تيارا سياسيا معينا و نسقا فكريا مختلفا. هناك إجماع على تقسيم تاريخ النخب في الدول العربية إلى ثلاث مراحل أو حقبات أساسية.

أ. الحقبة الإصلاحية:

مثلت هذه الحقبة بداية الوعي العربي بفكرة الفعل النهضوي في نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين، جاءت كنتيجة المقارنة مع التحولات التي عرفها الغرب، و تأثّره بشكلٍ كبيرٍ بالفكرِ الأوروبيّ من جهة، و كرّد فعل على سياسة التتريك في مرحلة لاحقة. مثّل هذه الحقبة العديد من المفكرين و رجال الدين الإصلاحيين مثل، رفاعة الطهطاوي، جمال الدين الأفغاني، عبد الرحمان الكواكبي و محمد عبده و غيرهم.

حدثت لهذه النخبة تجربة خاصة، حيث سافر أغلبها إلى فرنسا للدراسة، وتوصلت من خلال تجربتها هناك و احتكاكها بالحضارة الغربية إلى ضرورة التوفيق بين الإسلام وما حققه الغرب من تقدم، أي ضرورة إحداث تركيب بين تراثنا الحضاري وديننا والحداثة التي أنجزها الآخر ، والتي لا يمكن التعامي عن تفوقها العلمي والسياسي.

طبعا لم يكن هناك تيار وحيد بل كان هناك عدة تيارات حسب تطور المراحل التاريخية، ولكل تيار رموزه وأفكاره التي تميزه عن باقي التيارات، فكان يوجد التيار الديني والقومي، والليبرالي والاشتراكي و التيار الإسلامي.

لم ينحصر دور رواد النهضة العربية في مجال دون آخر، فلقد كان الإصلاح والنهوض يتزامنان معاً، إذ كانت لديهم هموم سياسية واجتماعية ودينية، فالقضايا التي عولجت كانت مرتبطة بعضها ببعض، حيث لم تنفصل قضايا السياسة عن الدين، ولا قضايا المجتمع عن السياسة، وتتمثل هذه القضايا في الوحدة العربية، والجامعة الإسلامية، والوقوف في وجه الظلم والاستبداد والمطالبة بالشورى والديمقراطية (الجابري 1996، ص. 7).

لقد كانت مكانة الإصلاح في عملية النهضة مهمة على حسب تعبير **محمد أركون** "لقد ساد الموقف الإصلاحي للنشاط الفكري العربي كله حتى حوالي سنة 1950 (أركون 1985، ص. 150)، و على الرغم من وجود حركة نهضوية في مرحلة سابقة من تاريخنا القريب، إلا أن عملية النهوض حسب بعض المثقفين لم تتحقق إلى الآن، ذلك لأن النهضة، كمقومات تاريخية واجتماعية، لم تبدأ عندنا بعد. فشروط التقدم تاريخية وليست أيديولوجية، و هذا ما لم تدركه النخب في عالمنا العربي والإسلامي (نويهض 1994، ص. 52).

ب. الحقبة الثورية:

كانت الانطلاقة مع نهاية الحرب العالمية الأولى إلى انتهاء المرحلة الناصرية، اتسمت هذه المرحلة بالأفكار الثورية، و النضال ضد الاستعمار كمرحلة أولى، ثم مرحلة بناء الدولة في عهد الاستقلال. لقد ارتبطت النخب في هذه المرحلة بمنظومة الحكم و دوائر صنع القرار، من خلال تبنيها لمشروع نهضوي قائم على القومية و النموذج الاشتراكي.

لقد عجزت الحركة القومية عن تحقيق أهدافها وفقدت مصداقيتها في الساحة العربية كمشروع نهضوي قومي، أكدته هزيمة 1967، لتكون بداية تراجع التيار القومي كقاطرة للمشروع العربي. لقد كانت حرب النكسة هزيمة فكرية وسياسية قبل أن تكون عسكرية، فقد أدت إلى نكسة على صعيد الوعي و من ثّم زعزعة الثقة في القيم السائدة التي شكلت أساس التطلعات العربية.

ت. حقبة فساد النخب و انكفاءها:

بدأت هذه المرحلة بعد نكسة 1967، النكسة التي اعتبرت نقطة الانعطاف لمسار الدول العربية الحاملة للمشروع القومي الاشتراكي التي دافعت عنه النخب في هذه المرحلة، و معها آمال الشعوب التي التفت حول مفاهيم الحركة القومية. النكسة التي مثلت قطيعة مع القناعات السابقة، و هو ما عجّل بالانتقال إلى مرحلة جديدة مهدت لها اتفاقية كامب ديفيد 1979، و أقرّت سياسة الانفتاح الاقتصادي، ليفسح المجال هذه المرة أمام مرحلة جديدة اتسمت بالصحوة الإسلامية و بداية بروز المشروع الإسلامي ممثلا في مختلف التيارات الإسلامية التي حملت قناعة الإسلام هو الحل لأزمات الدول العربية.

لكن مع مطلع الألفية الثالثة اتضح جليا عمق الأزمة الثقافية و السياسية التي تعيشها الدول العربية و ذلك بالنظر للتحولات الحاصلة على مستوى العالم و النظام الدولي من جهة، ومن جهة أخرى انهيار النظام الإقليمي العربي بعد حرب الخليج الثانية 1991، و انفراط عقد الجامعة العربية عبر الاستقواء بالخارج،

فشل كل المشاريع التنموية العربية، سواء كانت نماذج القومية الاشتراكية أو الطروحات لليبرالية التي ترى في التجربة الغربيةالحداثية نموذجا و مسارا لتحقق الفعل النهضوي الشامل، تفاقم ألازمات السياسية والاقتصادية و الأمنية في الدول العربية. أمام هذا الواقع اصطدمت النخب بحقيقة عزلتها عن شعوبها، كما عجزت كل النخب مهما كانت مرجعيتها و مشاربها الفكرية و قناعاتها السياسية من أن تعطي تفسيرات أو حلولا لهذا الواقع المتردي و الذي فقد بوصلته في عالم متحوّل وسريع.

إن أزمة النخب في تقديم الإجابات و الحلول و فراغ الساحة، فسح المجال أمام الانسجام مع المفاهيم الجديدة المرتبطة بحقوق الإنسان و الحرية و الديمقراطية و حقوق الأقليات و الأمن الإنساني و غيرها من المفاهيم الجديدة التي تبناها المجتمع الدولي، و التي سوف تصبح أدوات للضغط و لتكريس مزيد من التبعية و الإملاءات فيما يخص أولويات التنمية و اختيار النموذج الأصلح لنا، في ظل غياب أي مشرع وطني أو قومي لهذه الدول، و في ظل عالم متسارع تحمله الثورة المعلوماتية الهائلة.

4. دور النحب المثقفة في الوضع العربي منذ بداية الحراك العربي

إذا انطلقنا من الفكرة القائلة بأن من أهم أدوار النخبة في واقعنا المعاصر هي عمليّة النهوض الفكري والحضاري، و إذا ما اعتبرنا أن رافعة لأي مشروع تنموي و حضاري و نهضوي، باعتبارها العقل المستنير (توشار 1983، ص. 34)، سوف نلاحظ أن النخب العربية ما زالت تراوح مكانها في الدعوة المجرّدة إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي، بعيدا عن الأزمات العربية المتراكمة لعقود من الزمن، جارفة معها آمال الشعوب في التغيير نحو الديمقراطية و مزيد من الحريات. في هذا السياق يندرج تفسير **أرنولد توينبي** بأن تبدّل الحضارة يكون بدايةً بسبب ضعف النخبة التي توجّه الحضارة وانقلابها إلى سلطةٍ تعسفية، إضافة إلى انفضاض الشعب عن تأييد النخبة ورفض محاكاتها، ليؤدي الانشقاق وتفتّت المُجتمع دوره في السقوط الأخير.

لا شك في أن واقع النخب ينعكس من خلال قربها أو بعدها من قضايا مجتمعاتها، و مدى قدرتها على ترجمة ذلك في مشروع فعال أو رؤية قابلة للتحقيق من خلال الانخراط و التماهي مع أي تحرك في المجتمع باعتبارها -النخب- القاطرة لأي حراك مهما كانت صفته اجتماعي، سياسي، ثقافي...الخ.

و إذا ما أسقطنا هذا التوصيف على الحراك السياسي الذي حدث في بعض الدول العربية، أو الثورات العربية، أو ما اصطلح عليه إعلاميا بالربيع العربي، يجب أن نحدد طبيعة الأدوار المنوطة و المتبناة من طرف هذه النخب، و مدى انخراطها في عملية التحول الديمقراطي، و حدود ذلك. طبعا يتعلق الأمر هنا بعملية الإشراف أو التأطير السياسي، و تحمل المسؤوليات.

بالنظر إلى مختلف التجارب التي عرفتها الدول العربية خلال العشرية الماضية و التي تندرج ضمن انتفاضة وحراك "الشارع " ضد الأنظمة السياسية الحاكمة، و إصراره على إزاحة مقيمي القصور الرئاسية (Sorenson 2012)، يمكننا الخروج باستنتاجات علمية و منهجية تؤكد أن هذه الانتفاضات كانت بعيدة كل البعد عن كل صبغة فكرية أو نخبوية، و عن أي تأطير مهما كانت صفته، و تميزت بعفوية، كان محركها غضب الجماهير و الشعور باليأس من أي تحوّل مع الأنظمة السياسة القائمة، و التي كرّست منذ عقود هذا الجمود السياسي وهذا التدجين لأي نخبة كانت سياسية أو ثقافية أو غيرها، حتى صارت هذه النخب أدوات وظيفية في يد الأنظمة الحاكمة.

لقد أبرزت الثورات العربية من خلال مطالبها أن القضايا الخارجية لم تكن مطلباً مطروحاً في الحراك الجماهيري بل الهموم الوطنية هي التي كانت مسيطرة عليه، كما تميّز المشهد هذه المرة بالخصوصية، فلا انقلابات ولا ثورات تقليدية ولا زعماء ولا حركات نقابية وطلابية كما هو الشأن في الماضي (كعسيس 2014، ص. 226)، بل الفاعلون في هذه الثورة هم شباب «Facebook» الذي حمل الشعارات نفسها من حيث الشكل والمضمون من المحيط إلى الخليج، كلها حركات تنادي بدمقرطة السياسة والمجتمع وتبني مفاهيم حقوق الإنسان وغير ذلك من لوازم المواطنة الفعلية، علما أن الترتيب الذي وضعته منظمة فريدوم هاوس «freedom house» لعام 2011 يظهر عدم وجود أي دولة عربية "حرة" ، باستثناء إسرائيل الدولة الوحيدة المصنفة بذلك في الشرق الأوسط.

بذلك فرضت الثورات العربية تغيير الكثير من الافتراضات والمسلّمات فيما يتعلق بدور النخبة في إحداث التغيير، فما ميّز هذا الحراك هو الطابع الشبابي الصرف البعيد عن أي تأطير سياسي أو إيديولوجي أو نخبوي. إذن ازدياد الهوة بين مطالب الحراك السياسي و خطاب النخب المتكلّس، و المتماهي مع الخطاب الرسمي الذي أصبح لا يلبي متطلبات المرحلة، أدى إلى القطيعة مع هذه الأخيرة ، قطيعة كرستها ثورات" الربيع العربي".

خاتمة:

على ضوء ما سبق، خلصت الدراسة إلى أن النخب المثقفة كانت تشكّل على الدوام عنصرا فارقا في وعي الشعوب، ففي كل النماذج، كانت النخب في طليعة أي مشروع تنويري و نهضوي، و بمثابة رافعة لكل قضاياه، فلا نهضة علمية دون إصلاح المتجمع، ولا إقلاع اقتصادي دون وعاء سياسي يتلائم مع معطيات المرحلة. يفترض أن هذا هو دور النخب ولكن بالنظر إلى واقع الدول العربية، فقد فقدت هذه الأخيرة مكانتها وثقة شعوبها، و بالتالي فقدانها لأهم دور يمكن أن تضطلع به.

لا شك في أن أزمة النخب العربية، هي شبه القطيعة التي تعيشها مع الجماهير منذ عقود، وحتى قبل ظهور" الانترنت" ووسائل التواصل الاجتماعي، لكنها ازدادت عمقاً مع ظهور الثورة المعلوماتية، وفي شبه عزلة عن المجتمع ومشكلاته وتحدياته. فارتباط بعض النخب المدجنة بدوائر السلطة، بل وتبرير كل ممارساتها السياسية، جعل الجماهير، تفقد ثقتها في النخب المثقفة، وخصوصاً في دورها الرائد في مطالب الحرية والديمقراطية والتعددية. كما أنه لم يعد بإمكان المثقف قيادة الجماهير نظرا للتشعب الهائل الذي آل إليه الواقع المجتمعي وواقع الثورة المعلوماتية و دورها في حشد الجماهير ، و لعل ثورات "الربيع العربي" أحسن مثال على ذلك ، فهي لم تنطلق من قاعدة نخبوية ، و لم تكن مؤطرة لا سياسيا و لا عقديا ، حتى أنها لم تكن حاملة لمشروع نهضوي أو مشروع مجتمعي متكامل ، بل مجرد شعار" الشعب يريد إسقاط النظام " دون أن يكون له مقابل للبناء . هذه الظاهرة أكدت إفلاس النخب في بناء الوعي و تحريك الشارع، بل أكثر من ذلك ، هل تمتلك فعلا مشروعا نهضويا مهما كانت سماته ، إلا طبعا ما تعكسه اليوم من تمزق طائفي و اصطفاف سياسي حاد تدافع عنه هذه النخب العضوية ، بعيدا عن الاهتمام بقضايا التخلف الاقتصادي ، الاختلالات الاجتماعية ، و فقدان للبوصلة التي تعيشها الدول العربية.

وأخيرا نتساءل مرة أخرى، هل يمكن الحديث عن تجديد مشروع النهضة العربية المعاصرة، انطلاقًا من واقع التحولات العربية الجديدة؟ أم أن الأمر يتعدى التحولات السياسية إلى تدشين ثورة ثقافية عميقة في بنية المجتمعات؟.

قائمة المراجع

أولا: باللغة العربية:

1. إبراهيم، ع. (2003). المركزية الغربية: إشكالية التكون و التمركز حول الذات. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر.
2. أركون، م. (1985). الفكر العربي. ترجمة: عادل العوا. بيروت: منشورات عويدات.
3. الأنصاري، ع، ح. (2001). "نحو مفهوم عربي إسلامي للمجتمع المدني". المستقبل العربي. العدد 272.
4. توشار ، ج. (1983). تاريخ الفكر السياسي. ترجمة: علي مقلد. بيروت: الدار العالمية للطباعة و النشر .
5. الجابري، م، ع. (1996). المشروع النهضوي العربي: مراجعة نقدية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
6. رشاد، ع، غ. (1978). دور النخبة فى التنمية السياسية : دراسة نظرية مع محاولة للتطبيق على الدول النامية النموذج المصري. القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.
7. سترومبرج، ر. (1994). تاريخ الفكر الأوروبي الحديث. ترجمة: أحمد الشيباني. القاهرة: دار القارئ العربي.
8. سعيد، إ. (2006). المثقف و السلطة. ترجمة: محمد عناني. القاهرة: رؤية للنشر و التوزيع.
9. شوفالييه، ج، ج. (2002). تاريخ الفكر السياسي: من الدولة القومية إلى الدولة الأممية. ترجمة: محمد عرب صاصيلا. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع.
10. كعسيس، خ. (2014). "**الربيع العربي بين الثورة والفوضى**". مجلة المستقبل العربي. العدد 421.
11. نويهض، و. (1994). النخبة ضد الأهل. بيروت: دار ابن حزم.

ثانيا: باللغة الأجنبية:

12. Ory, P. Sirinelli, F. (2002). Les Intellectuels en France. De l'affaire Dreyfus à nos jours. Paris: Armand Colin.
13. Sorenson, D. (2012). transition dans le monde Arabe : printemps ou automne ?. ASPJ Afrique & Francophonie.